ATATÜRK ÜNİVERSİTESİ YAYINLARI
ATATURK UNIVERSITY PUBLICATIONS

Araştırma Makalesi *Research Article* DOI: 10.54614/JSSI.2022.8-26

صورة المجتمع في شعر البهاء زهير

Baha Züheyr'in Şiirlerinde Döneminin Toplumsal Yapısı

The Image of Society in the Poetry of Baha Zuhair

Abdullah HOUT

Atatürk Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belagatı Anabilim Dalı, Erzurum, Türkiye

تبحث هذه الدراسة في موضوع صورة المجتمع في شعر البهاء زهير؛ الشاعر الذي عاش في الدولة الأيوبية، وأدرك بداية الدولة المملوكية، ويرصد هذا البحث القصائد والأبيات التي تعبر عن حالة المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، محاولاً الكشف عن صورة السلطة في ذاك الزمان وعلاقتها مع الناس والشعراء، وصورة المرأة في المجتمع، سواء أكانت امرأة شريفة من عِلْية القوم، أو من الجواري اللواتي يعطين الحب لمن يريد، أو المحبوبة المُتَخَيَّلة فنياً بوصفها موضوعاً أدبياً.

ويرصد البحث عادات الناس في حالة ترفهم؛ لأن الشاعر ضرب صفحاً عن ذكر الفقر وأهله، وليس للبحث أن يزعم أن هذا الشعر وثيقة تاريخية محضة؛ يأخذ المرء منها أحكاماً دقيقة عن هذا العصر، ولكنه وثيقة فنية لشاعر عاش في هذا العصر وعاينه، ودقق فيه، وسلّط مرآته الفنية ليعكس صورة الحياة في ذاك العصر؛ الصورة التي أراد البهاء زهير توثيقها من خلال ديوانه.

ويحاول هذا البحث فهم الانشغالات التي تكون مدار اهتمام الشاعر في عصر من العصور الأدبية العربية المنصرمة، وهل كان الشاعر دقيقاً فنياً وجمالياً في نقل هذه الصورة

الكلمات المفتاحية: الشعر، البهاء زهير، صورة المجتمع، العصر الأيوبي

ÖZ

Döneminin önemli şairlerinden biri olan Baha Züheyr, Eyyubiler devletinin son döneminde ve Memlukler devletinin kuruluş yıllarında yaşamıştır. Edebi bir kişiliğe sahip olan Baha Züheyr'in şiirlerinde, döneminin toplumsal yapısına ilişkin bilgiler yer almakta ve şiirleri, dönemin toplum yapısının birçok veçhesine ışık tutmaktadır. Bu çalışma şairin şiirlerinde, döneminin toplumsal yapısına ilişkin iktisadî, siyasî ve ictimaî izleri tespit etmeyi amaçlamaktadır. Bu bağlamda döneminin iktidarının ve yönetiminin insanlarla, şairlerle ilişkilerine projeksiyon tutmaktadır. Ayrıca kadının, dönemin toplumsal yapısındaki durumuna ışık tutan bilgilere ulaşmaya çalışmaktadır. Bu doğrultuda gerek üst tabakadan asil ve varlıklı kadınların, gerekse bu tabakaya hizmet eden cariyeler gibi hizmet sınıfına mensup kadınların durumunu açıklayıcı bilgiler sunmaktadır. Çalışma, dönemin özellikle üst tabakasının geleneklerini, yaşam biçimini de ortaya koymaktadır. Zira şairin şiirlerinde toplumun alt tabakasına ilişkin bilgiler bulunmamaktadır. Çalışma, şairin şiirlerinde, dönemin toplumsal yapısını aydınlatan bilgilerin tarihi bir vesika niteliğinde olduğu iddiasında değildir. Ancak yine de bu bilgiler, gözlemlerini edebî değeri yüksek bir üslupla şiirine yansıtan şairin şiirinden elde edilmiş bilgiler olması yönüyle değerlidir. Bu meyanda çalışma, Arap edebiyatı tarihinin bir kesitinde yaşayan şairin edebi mahsulünden, dönemin toplum yapısının anlaşılmasına katkı sunması bakımından bir değer taşır.

Anahtar Kelimeler: Şiir, Baha Züheyr, toplumsal yapısı, Eyyubi dönemi

ABSTRACT

This study examines the image of society in the poetry of AL-Baha'a Zuhair, who lived during the reign of the Ayyubid dynasty and witnessed the rise of the Mamluk dynasty. The study focuses on the poems and verses which express the political, economic and social situation of society at that time while attempting to expose the image of power and its relationship with people and with poets. The study further focuses on the portrayal of women and their different ranks in society; ranging from the honorable women of the upper ranks, to maidservants who give themselves to anyone who asks, and to the imaginary beloved as a literary theme. The study also detects people's habits in times of luxury since the poet ignores themes of poverty and the poor. The research does not claim that Zuhair's poetry is a purely historical document that offers an accurate portrayal of its age; instead, it is the artistic vision of a poet who lived in that period, scrutinized it and used his poetic prowess to reflect life in that period – a reflection that the poet intended to document in his poetry. The research attempts to work out what preoccupies poets of the past Arabic literary ages and whether the poet was artistically and aesthetically accurate in his portrayal of his times.

Keywords: Poetr, AL-Baha'a Zuhair, image of society, Ayyubid period

Geliş Tarihi/Received: 09.02.2022
Kabul Tarihi/Accepted: 18.02.2022

Sorumlu Yazar/Corresponding Author: Abdullah HOUT
E-posta: abdullahhout85@gmail.com

Cite this article: Hout, A. (2022). The image of society in the poetry of Baha Zuhair. *Current Perspectives in Social Sciences, 26*(1), 137-142.

Content of this journal is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

تمهيد

استأثرت المرأة على مرِّ العصور بنصيب وافر من الشعر؛ فقد كانت في الكثير من الأحيان المحرك والدافع الرئيسي للتجربة الشعرية؛ فهي حاضرة منذ امرئ القيس إلى عصرنا هذا، وستبقى. فالمرأة هي المحبوبة والممدوحة و المهجوَّة؛ فهي مطلق الجمال ومطلق الخبث والقبح. إن العلاقة بين الشاعر والمرأة علاقة وطيدة؛ لأنَّها المُلهم له والمحرِّك لصناعة نصِّه الشعري، وقد اشتُهر بعضُ الشعراء بعلاقته بمحبوبة معينة؛ إن المتأمل في علاقة المجتمع بالأدب عامة وبالشعر خاصة يرى أن بينهما علاقة تبادلية، فكل منهما يؤثر ويتأثر بالآخر، فلا يمكننا ان نتصور نتاجا أدبيا أو شعريا منفصلا عن مجتمعه، أو غير متأثر به، فالشعر من أهم وأصدق المصادر التي يمكن أن نعود إليها لمعرفة طبيعة عصر من عصورنا الخالية، فهو ديوان العرب وذاكرتهم الحية، وله الفضل في رسوخ كثير من الوقائع والأحداث في ذاكرة الشعوب، وهو السِّجل الذي يسرد لنا عادات الناس وتقاليدهم، والمرآة الصافية التي تعكس لنا طبيعة أحوالهم، والشاعر صوت قومه وممثلهم في كل ميدان، وهو ابن زمانه وابن

مجتمعه الذي نشأ فيه، وتكونت شخصيته من خلاله، فصورة مجتمعه التي يصورها لنا من خلال شعره ما هي إلا نتيجة لذلك التفاعل الحاصل بين الشاعر والمجتمع، وما زالت هذه العلاقة بين الشاعر والمجتمع قائمة على مر العصور.

ويعد عصر البهاء زهير من العصور التي شهدت تقدماً وازدهاراً وتقلبا على جميع الأصعدة حتى الأدبية منها، والشعراء هم مكون من مكونات هذا المجتمع، فقد أصابهم ما أصاب دولتهم ومجتمعهم، ففي ضَعف المسلمين في أواخر عهد الدولة الفاطمية ضعفُهم، (ضيف، ٦٠٠٢: ٨٢/٧) وفي قوتهم ووحدة مصرهم وشامهم تحت راية واحدة في عهد الأيوبيين ازدهارُهم، (القزويني، 1960: 147، والسيوطي،1967: 284).

البهاء زهير:

هو زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر، الأديب الكاتب الصاحب بهاء الدين زهير، أبو الفضل، وأبو العلاء الأزدي المهلبي، القوصي الأصل، المكي المولد، المصري الدار والوفاة.

وُلد بوادي نخلة بالقُرب من مكة، ورُبّي بالصعيد، ونشأ بالقاهرة، وحفظ القرآن الكريم وأحكم الأدب، واشتغل وبرع في عدة علوم كالفقه والعربية واللغة، وله ديوان شعري مشهور.

خدم الملك الصالح، وسافر معه إلى الشرق، فلما ملّك الملك الصالح الديار المصرية رقّاه إلى أرفع المراتب، وجعله رئيس ديوان الإنشاء. (الذهبي، 2006: 483/16، والصفدي، 2000: 56/14، الزركلي، 2002: 52/3، واليونيني، 1954: 184/1-188، وبن تغري، 1988 :371/5، والعكري، 1406هـ 276/5)

ويعد البهاء زهير من أهم الشعراء الذين عاصروا الأحداث التي حصلت في تلك الحقبة في مصر، وعلى الرغم من كونه حجازي المولد إلا أنه مصري المنبت والهوى، وقد ظهر ذلك جليا في شعره، إذ يقول (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 149) من (الطويل):

وَكَم قَد رَأَت عَيني بِلاداً كَثيرَةً ... فَلَم أَرَ فيها ما يُسِرُّ وَما يُرضي
وَلَم أَرَ مِصراً مِثلَ مِصرٍ تَروقُني ... وَلا مِثلَ ما فيها مِنَ العَيشِ وَالخَفضِ
وَبَعدَ بِلادي فَالبِلادُ جَميعُها ... سَواءٌ فَلا أَختارُ بَعضاً عَلى بَعضِ

ويلمس المرء في شعره تأريخا لحقبة عايشها بكل تقلباتها، و قد تتبعت ما كتب عن الرجل؛ فوجدت أن أغلب الأبحاث تناولت الناحية الأدبية والنقدية والفنية في شعره، ولم أجد من تناول صورة المجتمع من خلال شعره؛ لذلك قر الرأي عندي أن أتتبع صورة المجتمع في شعر الرجل.

صورة المرأة:

استأثرت المرأة على مرِّ العصور بنصيب وافر من الشعر؛ فقد كانت في الكثير من الأحيان المحرك والدافع الرئيسي للتجربة الشعرية؛ فهي حاضرة منذ امرئ القيس إلى عصرنا هذا، وستبقى. فالمرأة هي المحبوبة والممدوحة و المهجوَّة؛ فهي مطلق الجمال ومطلق الخبث والقبح. إن العلاقة بين الشاعر والمرأة علاقة وطيدة؛ لأنَّها المُلهم له والمحرِّك لصناعة نصِّه الشعري، وقد اشتُهر بعضُ الشعراء بعلاقته بمحبوبة معينة؛ من مثل: علاقة عنترة بعبلة، وكُثيِّر بعزَّة، وجميل ببثينة، وقيس بليلى، بينما لم نر البهاء زهير يصرِّح باسم محبوبته، يقول (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 29) من (الطويل):

كَلِفتُ بِشَمسٍ لا تَرى الشَمسُ وَجهَها ... أُراقِبُ فيها أَلفَ عَينٍ وَحاجِبِ
مُمَنَّعَةٍ بِالخَيلِ وَالقَومِ وَالقَنا ... وَتَصعُبُ كُتبي عَن زِحامِ الكَتائِبِ
وَلَو حَمَلَت عَنّي الرِياحُ تَحِيَّةً ... لَما نَفَذَت بَينَ القَنا وَالقَواضِبِ
فَما لِيَ مِنها رَحمَةٌ غَيرَ أَنَّني ... أُعَلِّلُ نَفسي بِالأَماني الكَواذِبِ
أَغارُ عَلى حَرفٍ يَكونُ مِنِ اِسمِها ... إِذا ما رَأَتهُ العَينُ في خَطِّ كاتِبِ

لا نلمح في هذه الأبيات مشهد حب واضح أو عواطف محتدمة، بل إنَّ الشاعر يصوِّر امرأة من عِلية القوم تسكن في برجها العاجي، مكتنزة بجمالها، مطوقة بأحراسها، ولا سبيل إلى الوصول إليها؛ لأن دون ذلك أهوال، وهذه المرأة ـ الفكرة ـ يحاول الشاعر أن يبيِّن أنها تشكِّل له حالة شغف وغرام، ولكنَّنا لا نلمح في النص إلا تعلاً بالأمال وأماني كاذبة.

ويبدو لنا أيضاً أن هذا الفضاء الحي، الذي تسكنُه هذه الجميلة المزعومة، أقول: إنَّ هذا الفضاء لم يقربه الشاعر، وليس لديه تصور دقيق عنه، وكأنَّه يتحدث عن عالم يُتوقع أن تكون فيه هذه البديعة الخلق كأنها جوهرة مكنونة في قصر بعيد، يعيش فيه عِلْيةُ القوم، بينما يجلس البهاء زهير بعيداً عن تخومه، محاولاً رسم صورة افتراضية للشكل والرغبات. ولم تكن المرأة بالنسبة للبهاء زهير ذلك الشغف الذي يجري خلفه، بل كانت في بعض الأحيان مثال الشر والقبح الذي يتصدى لهجائه والنيل منه مصوراً حال المرأة بطريقة ساخرة يقول (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 36) من (مجزوء الكامل):

كَم ذا التَصاغُرُ وَالتَصابي ... غالَطتِ نَفسَكِ في الحِسابِ
لَم يَبقَ فيكِ بَقِيَّةٌ ... إِلّا التَعَلُّلَ بِالخِضابِ
لا أَقتَضيكِ مَوَدَّةً ... رُفِعَ الخَراجُ عَنِ الخَرابِ
وَلَقَد رَأَيتُكِ في النِقا ... بِ وَذاكَ عُنوانُ الكِتابِ
وَسَأَلتُ عَمّا تَحتَهُ ... قالوا عِظامٌ في جِرابِ
وَسَمِعتُ عَنكِ فَضائحاً ... سارَت بِها أَيدي الرِكابِ
هَذا وَكَم مِن وَقفَةٍ ... لَكِ في الأَزِقَّةِ لِلعِتابِ
وَاليَومَ قالوا حُرَّةٌ ... سِتُّ الحَرائِرِ في الحِجابِ
فَإِذا عَدَدتُكِ في الكِلا ... بِ حَطَطتُ مِن قَدرِ الكِلابِ

يرصد هذا النص صورة المرأة الجارية اللعوب في ذاك العصر؛ المرأة التي تنتقل من رجل إلى رجل، ومن هوى إلى هوى، ومن تجربة إلى تجربة، ويبدو أن الشاعر يتكلم هنا عن اسم بعينه أو تجربة يعرفها، ولكنه عمَّى عن الاسم الحقيقي؛ لشيوع الظاهرة في زمن كثُرت فيه الإماء والرقيق اللواتي كنَّ يُستجلبن من كلّ صقع، ثم صرن جزءاً من الحياة الاجتماعية في مصر في ذاك الزمان، ويحرِّك الشاعر عدسته لتصوير مشهدية ظريفة في هذه المرأة، فقد وصف جسدها المتهدم المختبئ تحت الحجاب، وينقل لنا ماضي تلك المرأة وهي تحادث الرجال؛ معاتبة في الأزِقَّة، وقد استخدم "كم" التكثيرية ليدلل على تعدد تجارب هذه المرأة، وأوشكت عدسته أن تجعل القارئ يرى هذا المشهد عياناً، ثم يمضي الشاعر إلى وصف الأبعاد النفسية والأخلاقية لتلك المرأة؛ فهي متحلِّلة مما يفرضه المجتمع من أخلاق وقيود، ويبدو أن الشاعر لا يريد أن يغفر لهذه المرأة تاريخها وزلّلها، وإنما يقف كاشفاً هذا العوار، الذي عاشته وتريد أن تخبئه الآن تحت رداء المرأة الحرة.

صورة الثقلاء:

عندما نتكلم عن الفكاهة فإننا لا نستطيع أن نغفل عن ذكر مصر، هذا الشعب الذي تميز بروحه اللطيفة وبنكتته الجميلة على مر الأزمان، وإلى ذلك يشير شوقي ضيف في مطلع كتابه عن الفكاهة في مصر، إذ يقول: "من أهم ما يميز المصريين في عصرهم الحديث روح الفكاهة المنبثة في أحاديثهم، فهم مشغولون بالنكتة على كل شخص وكل شيء، وفي أحرج المواقف وأدقها لا تلبث بارقة الفكاهة أن تلمع وتتألق وترتسم على الأفواه والشفاه، وليست هذه الروح جديدة على المصريين، فهي قديمة فيهم، ترجع إلى أعتق الأزمنة وأعمقها في التاريخ، ألهمتهم بذلك عصور الشدة

والرخاء منذ كانوا يحملون صخور الأهرامات على كواهلهم، ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم." (ضيف، 2004: 5) فحين يُراد الكلام عن الحياة الاجتماعية في مصر تقفز إلى الذهن صورة ذلك الرجل المصري الفكاهي صاحب الظل الخفيف والنكتة الحاضرة، ولكن عدسة البهاء زهير الشعرية استطاعت أن ترصد لنا وجود ذلك الشخص الثقيل الجاهل، وصوَّرته لنا تصويراً امتزج بالروح المصرية الرقيقة اللطيفة، فقد ابتعد عن الشتيمة وفحش القول، وترفَّع عن الأذى، ولم يكن سبَّاباً ولا لعَّاناً، إنما استثقل ظلَّهم؛فوصف شعوره تجاههم،"والقارئ لشعر البهاء زهير يحسُّ بما في نفسِ الشاعرِ من رِقَّة وحسنِ ذوق، وبعْدٍ عن الشرِّ والأذى، ومما يَدل على لطف روحه أنَّه قلَّما يهجو بغير الوصف بالثِّقل." (عبدالرازق، 1935: 21/1) ومن ذلك وصفه لثقيل جالسه، وقد حاول جاهداً الكشف عن الجانب الإيجابي في شخصيته فلم ينجح، فهو كما يصفه، ثقيل في هزله وجده وفي جميع أحواله، فيقول (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 74) من (الهزج) :

بِحَقِّ اللهِ مَتِّعني ... بِذَاكَ الوَجهِ بالبُعدِ
فَمَا أَشوَقَنِي منكَ ... إلى الهِجْرانِ والصَّدِّ
فمَا تَصْلُحُ لِلْهَزْلِ ... ولا تَصْلُحُ لِلجِدِّ
وَمَاذَا فيكَ مِن ثِقْلٍ ... وماذَا فيكَ مِنْ بَرْدِ
فَلَا صُبِّحْتَ بالخَيرِ ... ولا مُسِّيتَ بِالسَّعْدِ

وقد استخدم الشاعر في وصفه للثقيل هنا بحر الهزج، ذا الإيقاعات الراقصة، وكأني بالشاعر يريد رسم مشهد ظريف للتملُّح والتفكُّهِ، وليست الغاية تحطيم المهجو أو التشنيع عليه.

ويصف ثقيلاً آخرَ بأن الاقتراب منه اقتراب من الموت، الذي يفرُّ منه جميع النَّاس، فجميع من خالطه أجمع على غلظ طبعه؛ فيقول (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 23) عنه من الخفيف:

وَثَقيلٍ كَأَنَّما ... مَلَكُ المَوتِ قُربُهُ
لَيسَ في الناسِ كُلُّهِمْ ... مَن تَراهُ يُحِبُّه
لَو ذَكَرتَ اِسمَهُ عَلى الْـ ... ـماءِ ما ساغَ شُربُهُ

ونجد أن كلامه عن الثقلاء لا يقتصر على عامة النَّاس بل ربما تعداهم إلى الأعيان؛ فنجده يصف شعوره عندما يصفُ مجلساً ضمه مع شيخ ثقيل أحمق، تكرر لقاؤه به، قائلاً (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 236) من الرجز:

كُلَّما قُلتُ اِستَرَحنا ... جاءَنا الشَيخُ الإِمامُ
فَاِعتَرانا كُلَّنا مِنـ ... ـهُ اِنقِباضٌ وَاِحتِشامُ
فَهُوَ في المَجلِسِ قَدمٌ ... وَلَنا فَهوَ فِدامُ
وَعَلى الجُملَةِ فَالشَي ... خُ ثَقيلٌ وَالسَلامُ

صورة حياة الترف:

ويصور شعر البهاء زهير حياة الترف واللهو لطبقة من المجتمع في مصر في ذاك الزمان، يقول (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 110-112) من الهزج:

عَلى حِسِّ النَواعيرِ ... وَأَصواتِ الشَحاريرِ
وَقَد طابَ لَنا وَقتٌ ... صَفا مِن غَيرِ تَكديرِ
فَقُم يا أَلفَ مَولايِ ... أَدِرها غَيرَ مَأمورِ
أَدِرها مِن سَنى الصُبحِ ... تَزِد نوراً عَلى نورِ
عُقاراً أَصبَحَت مِثلَ ... هَباءٍ غَيرِ مَنثورِ
بَدَت أَحسَنَ مِن نارٍ ... رَأَتها عَينُ مَقرورِ
نَزَلنا شاطِئَ النيلِ ... عَلى بُسطِ الأَزاهيرِ
وَقَد أَضحى لَهُ بِالمَو ... جِ وَجهٌ ذو أَسارِيرِ
تَسابَقنا إِلى اللهوِ ... وَوافَينا بِتَكبيرِ
وَفينا رَبُّ مِحرابٍ ... وَفينا رَبُّ ماخورِ
وَمِن قَومٍ مَساخيرِ ... وَمِن قَومٍ مَساتيرِ
وَمِن جِدٍّ وَمِن هَزلٍ ... وَمِن حَقٍّ وَمِن زورِ
وَرُهبانٌ كَما تدري ... مِنَ القِبطِ النَحاريرِ
وَتالٍ لِلمَزاميرِ ... بِصَوتٍ كَالمَزاميرِ
فَقُل ما شِئتَ مِن قَولٍ ... وَقَدِّر كُلَّ تَقديرِ

تبدو حالة الفرح والتنعُّم من بداية النص؛ أي: من إيقاعه، فقد نظم الشاعر هذه القصيدة على الهزج؛ البحر الراقص الذي تتراقص تفعيلاته مُنْبيةً عن حالة الناظم، ويبدأ الشاعر قصيدته هذه مبتدئاً من المستوى الصوتي، فهذا الاجتماع كان على حس النواعير وأصوات الشحارير؛ حيث تجمَّع قوم من الأعيان ومن السوقة ومن المسلمين ومن الأقباط في أصبوحة لَذَّة، يطوف عليهم ساق يتنقَّل بينهم ليسقيهم عقاراً، جعلت الدفء يشتعل في أوصالهم المقرورة، وقد افترشوا الأزاهير على شاطئ النيل يتسابقون إلى اللهو، ومعهم صاحب محراب، وفي الآن نفسه صاحب ماخور؛ في مشهد يتناوبون فيه اللذات، وتحركت عدسة الشاعر لترصد أدق التفاصيل من المكان إلى الزمان إلى الحضور بانتماءاتهم ورغائبهم. و يستطيع المرء أن يتخيَّل صورة هذه الطبقة المتنعِّمة في القاهرة التي أوقفت وقتها ومالها لانتهاب اللذات، وكأني بالشاعر قد قال هذا النص وعاين هذه التجربة وهو في شرخ شبابه؛ لأن المفردات المستخدمة تدل على فرط الحيوية والنشاط والإقبال على الحياة، ويستدل المرء أيضاً على مكانة القبط النصارى في مجتمع الدولة الإسلامية في ذلك الزمان، فقد أشاد بهم البهاء زهير عندما قال " القبط النحارير" وفي هذا دلالة على نظرة المجتمع إليهم، وعلى متانة العلاقة بين أطياف المجتمع المصري، وينظر أيضا في ديوانه مشهد خمري ولكنه دون ندماء، اجتمع فيه الشاعر والخمر وخليلة في الصفحة92.

صورة المجتمع من خلال موضوع الغزل:

كان البهاء زهير ذا نعمة ويسار، وقد حصَّل ذلك من عمله في ديوان الإنشاء فتملك ضياعاً، وعاش في بحبوحة وبُلْهنية عيش، أضف إلى ذلك أنه شاعر مطبوع يجري الشعر على لسانه رقراقاً، وبسبب من النعمة واليسار اللذين كان فهما ومعاقرته للشعر فإنه قد أخرج إلينا مجموعة من القصائد الغزلية التي تغيب عنها أسماء الحسناوات اللواتي كن موضوع هذه القصائد، يقول (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 168) من الطويل:

حَبيبِيَ ما هَذا الجَفاءُ الَّذي أَرَى ... وَأَينَ التَغاضي بَينَنا وَالتَعَطُّفُ
لَكَ اليَومَ أَمرٌ لا أَشُكُّ يُريبُني ... فَما وَجهُكَ الوَجهُ الَّذي كُنتُ أَعرِفُ
لَقَد نَقَلَ الواشونَ عَنّيَ باطِلاً ... وَمِلتُ لِما قالوا فَزادوا وَأَسرَفوا
كَأَنَّكَ قَد صَدَّقتَ فِيَّ حَديثَهُم ... وَحاشاكَ مِن هَذا وَخُلقُكَ أَشرَفُ
وَقَد كانَ قَولُ الناسِ في الناسِ قَبلَنا ... فَفُنِّدَ يَعقوبٌ وَسُرِّقَ يوسُفُ
بِعَيشِكَ قُل لي: ما الَّذي قَد سَمِعتَهُ ... فَإِنَّكَ تَدري ما تَقولُ وَتُنصِفُ
فَإِن كانَ قَولاً صَحَّ أَنّيَ قُلتُهُ ... فَلِلقَولِ تَأويلٌ وَلِلقَولِ مَصرَف
وَهَب أَنَّهُ قَولٌ مِنَ اللَهِ مُنزَلٌ ... فَقَد بَدَّلَ التَوراةَ قَومٌ وَحَرَّفوا
وَها أَنا وَالواشي وَأَنتَ جَميعُنا ... يَكونُ لَنا يَومٌ عَظيمٌ وَمَوقِفُ

ويمكن للمرء أن يذهب مذهبين في تفسير هذا الأمر.

الأول: أن الشاعر يعيش في مجتمع المتنعمين، أي: علية القوم، والنساء اللواتي يدرن في هذا الفلك هن ربات الحجا والعفاف، اللائي لا يمكن التصريح بأسمائهن لفَتْكة قد تصيب الشاعر من هذا التصريح، أو لعهود أخذنها عليه، وفي المحصلة فإن هذه القصائد بمفرداتها الرقيقة، وبنيتها الدرامية، تنبؤنا عن صورة هذا المجتمع الذي ذاب ترفاً ورقت طباع أهليه؛ فالشاعر يشكو جفاء المحبوب، ويطلب التعطف، ويؤلمه الصدود من المحبوب؛ حيث لم يعتد ذلك، فينبري لإيجاد تفسير لهذه الحال، فلعله الواشي الذي نقل حديثاً كذباً؛ ليفسد المودة بين الشاعر ومحبوبته، ويقطع أواصر الوصال، ونلحظ أن شخصية الواشي عنصر مهم في بناء القصيدة الغزلية عند البهاء زهير وهذا العنصر؛ أي: الواشي هو العامل المساعد لصنع البنية الدرامية للقصيدة وهذا ما يقودنا إلى هذا الافتراض.

الثاني: وهو أن إحجام الشاعر عن التصريح بأسماء المحبوبات عائد لأمر؛ فني فلربما أن هذه التجارب الغرامية الكثيرة لم تحدث على التحقيق، وإنما كانت افتعالاً فنياً زعمه الشاعر، وما وجود المحبوبة إلا عنصر فني لاستكمال الصورة الجمالية للقصيدة حتى تضج بالحياة، وليس البهاء زهير بدعاً في هذا الأمر بل إن هذا الأمر متواتر منذ الجاهلية، فنجد في قصائد غزل القدماء الكثير من أسماء النساء اللواتي لم يوجدن حقيقة، بل كان وجودهن وجود فني محض، وما يدعم هذا الرأي هو طبيعة حياة البهاء زهير، فلم تذكر الدراسات أنه كان متهتكاً عابثاً ليس له عمل وهمه مطاردة النساء وحسب، بل كان الرجل يعيش حياة جادة، وخدم رئيساً في ديوان الإنشاء مدة غير يسيرة، وبما أن الشاعر لا يصدر عن فراغ، ويكون شعره تعبيراً عن حركة المجتمع والعصر، فإن ظاهرة الحب والغرام بلا ريب كانت شائعة في عصر البهاء زهير في المجتمع الثري. (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 155)

ومن ذلك أيضا قوله يصف جارية فتن بها (من السريع):

وَحَسناءَ ما ذاقَت لِغَيري مَحَبَّةً ... وَلا نَغَّصَت لي حُبَّها بِشَريكِ
تُسائِلُ عَن وَجدي بِها وَصَبابَتي ... فَقُلتُ أَما يَكفيكِ موتِيَ فيكِ
وَكانَت تُسَمّيني أَخاها تَغَلُّلاً ... فَقُلتُ لَها أَفسَدتِ عَقلَ أَخيكِ
تَرَكتُ جَميعَ الناسِ فيكِ مَحَبَّةً ... فَيالَيتَ بَعضَ الناسِ لي تَرَكوكِ
رَأَوكِ فَقالوا البَدرُ وَالغُصنُ وَالنَقا ... وَلا شَكَّ أَنَّ القَومَ ما عَرَفوكِ
لَعَمرُكِ قَد أَذنَبتِ حينَ ظَلَمتِني ... كَذا الناسُ في تَشبيهِهِم ظَلَموكِ
وَلَم تَظلِمي إِلّا بِقَولِكِ قَد سَلا ... أَمِثلِيَ يَسلوا عَنكِ لا وَأَبيكِ
وَلِلناسِ في الدُنيا مُلوكٌ كَثيرَةٌ ... وَهَيهاتَ ما لِلناسِ مِثلُ مَلوكي

للبهاء زهير طريقة اختطها في الغزل، لم يسبق إليها، إنهت محطة فارقة في تاريخ القصيدة العربية، وذلك لبساطة الموضوع عنده وبساطة اللغة وعفويتها، فهو شيء من امرئ القيس في مغامراته الغرامية ولكنه لا يشبهه في تهتكه، وهو مثل عمر بن أبي ربيعة في تعدد المحبوبات وطريقة السرد الدرامية في شعره، ولكنه لا يصرح بأسماء محبوباته مثله، وعندما نقول ذلك، فنحن هنا أمام صنفين من النساء في مجتمعه، حرائر وجوار، فنظرة المجتمع للنساء في عصره تفرق بين الحرة والأمة، فلا يعاب عليه ولا يعد ذكره لاسم جارية تهتكا أو فضحا لها، فما الأمة إلا سلعة تباع وتشترى، ولذلك نجده لم يصرح في ديوانه إلا بأسماء بعض الجوار، ووجود الجوار في عصره يعد أحد مظاهر الترف التي ظهرت في المجتمع حينئذ، ففي مجالس الأنس التي كانت تجمع أعيان الدولة وشعرائها وأهل الظرف، كان حُسْن الجواري وظرفهن وثقافتهن وإجادتهن الشعر والغناء هو الحامل الرئيس، لهذه المجالس، وكانت هؤلاء الجواري اللواتي يعشن في القصور من أحسن نساء زمانهن جمالاً ورقةً وبداهةً؛ لذلك كانت هذه الصفات جاذبة لحاضري هذه المجالس، ولربما وقعت إحدى هؤلاء الجواري في نفس أحدهم فراسلها يبثها شجنه ولوعات عشقه وما يعانيه من فراقها. (Alrashed, Çavuş, 2021: 398)

القيم المدحية في شعره (صورة الممدوح)

يستطيع المرء من خلال تتبع القصيدة المدحية في عصر البهاء زهير فهم الحالة السياسية في ذاك الزمان ومكانة الأمير أو الوالي أو السلطان، ونظرة الناس له، ومساهمة الشعراء في تجميل أهل السلطة أو وصف حالهم أو الترويج لهم، وثمّة قيم مدحية استقرت عبر عصور الشعر العربي منذ مدائح الأعشى وزهير بن أبي سلمى حتى البهاء زهير، مع تطور في بعض المفاهيم التي استحدثت بسبب من تطور الحياة، فالممدوح بالنسبة للشاعر هو ذو الأصل الطيب، والمحتد الكريم، والأرومة النقية الصافية، وهو منتهى الجود والكرم، بل إن الناظر في الصور التي دبجها البهاء زهير يدرك أنه يتكلم عن إسراف وليس عن كرم فقط، فالأمير أو السلطان يمنح ضياعاً وقرى، وهذا ما يدلل على أن الثروة والأرض قد أصبحت تحت يد أهل السلطة، يمنحونها لمن رضوا عنه أو من رغبوا في استخدامه، فإذا طرب الأمير لقصيدة يقول للشاعر هاك تلك الضيعة، وفي هذا يقول (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 63) البهاء زهير في مدحه لبعض الأمراء من الطويل:

وقد قاسَ قومٌ جودَ يمناهُ بالحيا ... وقد غَلِطوا، يُمناهُ أسخَى وَأسمحُ
وغيثٌ سمعتُ الناسَ ينتجعونهُ ... فأينَ يرى غيلانُ منهُ وصيدحُ
ولكنّ سلطاني أقلُّ عبيدِهِ ... يَتيهُ على كِسرَى المُلوكِ وَيرْجَحُ
وَبَعضُ عَطاياهُ المَدائنُ والقُرَى ... فمن ذا الذي في ذلك البحرِ يَسبَحُ

وحتى يعزز الشاعر صورة الممدوح الإيجابية، فإنه يضعه في سياق تاريخي مع ملوك وفضلاء وأعيان في عهود انصرمت، فنرى ذكراً للحارث بن ظالم المري ولكعب بن مامة الإيادي وحاتم الطائي، وإذا أراد أن يصف عظمة ملك وسلطان الممدوح استدعى صورة كسرى ذي المُلك العظيم في حقبة منصرمة، والممدوح حليم كمثل حلم الأحنف بن قيس، وهو حسن الخلق جواد غيَّاث، وهو كعبة المعروف، يقول في ذات القصيدة: (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 64)

كثيرُ حَيَاءِ الوَجْهِ يَقطُرُ ماؤهُ ... على أنّهُ مِن بأسِهِ النّارُ تَلفَحُ
من النَفَرِ الغُرّ الذينَ وُجوهُهُمْ ... مَصابيحُ في الظّلماءِ بَل هيَ أصبَحُ
بهاليلُ أملاكٌ كأنّ أكفهمْ ... بحارٌ بها الأرزاقُ للناسِ تسبحُ
وإني لديكَ اليومَ في ألفِ نعمة ... ولكنْ عسى ذكري ببالكَ يسنحُ

وهذا يدل على أن صورة السلطة والحكم في القرن السادس الهجري كانت نسخة مقلدة لما قبلها، فالحكم مركزي بيد من يتغلَّب، وما على الشعراء إلا أن يخرجوا من ذواكرهم أو من محفوظاتهم صورا وتشبيهات استقرت، ولم يبدُ لنا ونحن ندقق في قصيدته المدحية أنه كان مشغولاً بتجويد نصه الفني أو تجويد صوره، ومن جانب آخر يحيل هذا التركيز على صورة الممدوح السلطان أو الأمير أو أحد الأعيان على إضراب الشاعر عن النظر في حال العامة وبؤسهم وفقرهم، فلم تكن هذه الأشياء من هموم الشاعر الفكرية أو الفنية، فالفقر قد أنهك المصريين في بعض أحايين حكم الأيوبيين لهم، وشهدت مصر في عهدهم موجات غلاء متكررة ارتفعت فيها الأسعار وساءت أحوال الناس، "وفي الفترة بين 596-598 هـ تعرضت مصر لأزمة اقتصادية حادة، وتعد هذه الفترة أطول وأخطر أزمة اقتصادية تعرضت لها الدولة الأيوبية في مصر على الإطلاق، وكان السبب الرئيسي في حصولها نقص ماء النيل عن الوفاء ثلاث سنوات على التوالي"، (ابن واصل، X1953 251/2 والسيوطي، 3: 115/1997 والنويري، 2005: 5/9) حتى إن الخبز لم يعد متوفرا في أسواقها، " وارتفع سعر الخبز إلى درهم ونصف الرطل، وفقد من الأسواق أكثر من مرة، ووصل سعر الرأس الواحد من البقر سبعين دينارا" (ساويرس، 2006: 1641-1642، والبغدادي، 1983:95)

و"في سنة 633 حصل بمصر وباء عظيم، مات فيه خلق كثيرواستمرَّ هذا الوباء حتى سنة ٤٣٦هـ، وكان أشد منه في السنة الماضية، فارتفعت الأسعار وعزَّ وجود الأقوات والعقاقير،" (المقريزي، 1934: 1/250-254)

العادات والتقاليد

يستطيع المرء المدقق في ديوان البهاء زهير أن يرصد بعض العادات والتقاليد المتناثرة في ديوانه هنا وهناك، فإذا ما لم شعثها وأدمن فيها التأمل يستطيع أن يرى من خلالها الدور المهم الذي تلعبه في تحديد هوية المجتمعات، وهي تندرج ضمن دوال الهوية الثقافية للمجتمع. وهوية المجتمع الثقافية هي خليط من الأعراف والتقاليد والميول والأهواء والأطوار التي تتمثل على شكل تمثلات ثقافية، تعبّر عن الوجود الإنساني، كما تعبّر عن انتماء الفرد إلى ذلك المجتمع الذي يعيش فيه،(الأحمد، محمد، 2020: 110) ومن تلك العادات المجتمعية التي اندثرت الامتناع عن زيارة المريض يوم السبت، ولربما تسربت هذه العادة من التراث الفرعوني، فإنها غير موجودة الآن، يقول (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 149) الشاعر من الطويل:

أَحبابَنا حاشاكُمُ مِن عِيادَةٍ ... فَذَلِكَ وَهْنٌ في القُلوبِ مَضيضُ
فَلا تُنكِروا مِنّي أُموراً تَغَيَّرَت ... فَفي السَبتِ قالوا ما يُعادُ مَريضُ
وَماعاقَني عَنكُم سِوى السَبتِ عائِقٌ ... فَقَد خُضتُ فيما الناسُ فيهِ تَخوضُ
وَعاشَرتُ أَقواماً تَعَوَّضتُ عَنهُمُ ... أُوَطِّئُ أَخلاقي لَهُم وَأَروضُ
وَلِلناسِ عاداتٌ وَقَد أَلِفوا بِها ... لَها سُنَنٌ يَرعَونَها وَفُروضُ
فَمَن لَم يُعاشِرهِم عَلى العُرفِ بَينَهُم ... فَذاكَ ثَقيلٌ بَينَهُم وَبَغيضُ

إذن، يعتذر الشاعر عن الامتناع عن ازديار خلانه وأن هذا الامتناعَ ليس جفاء، وإنما جري على عادة يمشون عليها، ويعزز الشاعر موقفه هنا بحجاج منطقي، فهذا عرف سار بينكم ومعلوم أن تقدير العرف من الحصافة.

ونقرأ في ديوانه نماذج شعرية تصور بعض الأفكار السارية في المجتمع كالخط على الرمل، الذي هو فكرة وعادة جاهلية قديمة؛ حيث يفزع صاحب الحاجة إلى كاهن حتى ينبؤه بما سيؤول إليه حاله، ويصور الشاعر هذه العادة في سياق تجربة الحب والفقد، فأحمر الخد الذي علقه ملك حياته، ولا يستطيع له فراقاً، فلم يكن أمامه إلا اللجوء إلى الكهَّان ليخطوا له في الرمل، حتى يرى هل من أوبة للحبيب، فقد صار يُرى في شغفه واضطرابه أشبه بمجنون بني عامر، يقول (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 221) من الطويل:

تَعَلَّمتُ خَطَّ الرَملِ لَمّا هَجَرتُمُ ... لَعَلّي أَرى فيهِ دَليلاً عَلى الوَصلِ
فَرَغَّبَني فيهِ بَياضٌ وَحُمرَةٌ ... عَهِدتُهُما في وَجنَةٍ سَلَبَت عَقلي
وَقالوا طَريقٌ قُلتُ يارَبِّ لِلّقا ... وَقالوا اِجتِماعٌ قُلتُ يارَبِّ لِلشَملِ
فَأَصبَحتُ فيكُم مِثلَ مَجنونِ عامِرٍ ... فَلا تُنكِروا أَنّي أُخُطُّ عَلى الرَملِ

ونرى أيضا عادات الطبقة المترفة ورسائل الإخوانيات التي يتبادلها أهل الأدب مع خلانهم أو مع الأعيان ممن يتعاطون الأدب؛ ففي هذه القصيدة يرد الشاعر على قصيدة أتته مصحوبة بطبق ورد من صاحبه، فرد على هدية الورد بهذه القصيدة، ويستطيع المرء أن يتصور مقدار رقة الحياة وبُلْهنيةِ العيش التي كانت تنعم بها هذه الطبقة المحاطة بالشعر والورود، يقول (الجبلاوي وأبو الفضل، د.ت: 80) من مجزوء الرمل:

دُمتَ في أَرغَدِ عَيشٍ ... كُلَّ يَومٍ في مَزيدِ
قَد أَتانا الطَبَقُ المَلْ ... آنُ بِالوَردِ النَضيدِ
غَيرَ أَنّي لا أُحِبُّ ال ... وَردَ إِلّا في الخُدودِ
وَأَتاني مِنكَ شِعرٌ ... كُلُّ بَيتٍ في قَصيدِ

الخاتمة

إن الشعر من أهم الوثائق التي تحفظ ذاكرة الشعوب بمختلف تحولاتها الاجتماعية والسياسية والثقافية، خاصة في الجانب الذي يكون الشاعر فيه جزءاً أو طرفاً فيما يروي، فالشاعر يدرك بمخياله ما لا يراه غيره.

رسم البهاء زهير من خلال شعره صورة المجتمع المصري في الحقبة التي عاصرها؛ فتناول صورة المرأة التي عاصرها، وأخذت حيزاً كبيراً من شعره؛ فقد رسم مشهدية للمرأة الغنية صاحبة السلطة الممنَّعة بالخيل والرجال؛ التي يصعب الوصول إليها، وللجواري اللاتي شاع حضورهن في المجتمع، وللمرأة الجميلة والقبيحة وبائعة الهوى.

كما حاول الشاعر تصوير الحياة المنعمة؛ التي كان يعيشها المترفون من أهل عصره؛ فتحدث عن طبيعة حياة الطبقة الارستقراطية في مجتمعه، وصور لنا مجالس اللهو التي كانوا يغشونها، والحفلات التي كانت تقام على النيل، ويحضرها جميع أطياف المجتمع.

ظهر في شعره صور إيجابية لمكونات المجتمع في مشهد يمثل تجانس جميع أطياف المجتمع المصري، فالأقباط في عصره كانوا يعيشون حياة هانئة على الرغم من الحروب الصليبية التي كانت دائرة حينها.

كما سلَّط البحث الضوء على طبيعة الحكم في عصره؛ فالحاكم في عصره يتمتع بصلاحيات واسعة؛ فيهب القرى ويُقطع الأراضي لمن أخلص له من رعيته.

ولم يُغفل الشاعر العادات الاجتماعية التي كانت شائعة في مجتمعه؛ فنجده يتعرض في أماكن متفرقة من ديوانه لبعض العادات التي كانت سائدة في زمنه، ولم تعد موجودة الآن كالامتناع عن زيارة المريض يوم السبت، كما أن هناك بعض العادات التي ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا كتقديم

الورود في المناسبات الاجتماعية ونحوها.

Hakem Değerlendirmesi: Dış bağımsız.

Çıkar Çatışması: Yazar çıkar çatışması bildirmemiştir.

Finansal Destek: Yazar bu çalışma için finansal destek almadığını beyan etmiştir.

Peer-review: Externally peer-reviewed.

Declaration of Interests: The author have no conflicts of interest to declare.

Funding: The author declared that this study has received no financial support.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، ع. (1995). الكامل في التاريخ. دار الكتب العلمية.
ابن تغري، ي. (1988). المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. تحقيق د نبيل محمد عبدالعزيز. مركز تحقيق التراث.
ابن واصل، ج. (1953). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. تحقيق جمال الدين الشيال.
ابن منظور، م. (1414) لسان العرب، دار صادر.
الأحمد، محمد، (2020)، دوال الهوية الثقافية وتحوّلاتها في رواية "السيرة الحلبية"، مجلة كلية الإلهيات في جامعة بايبورت، العدد ١١.
البغدادي، ع. (1983). الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. تحقيق: أحمد غسان سبانو. دار قتيبة.
الجبلاوي، م. (د.ت). ديوان البهاء زهير. دار المعارف.
الحنبلي، أ. (1996). شفاء القلوب في مناقب بني أيوب. مكتبة الثقافة الدينية. تحقيق: مديحة الشرقاوي.
الذهبي، ش. (2006). سير أعلام النبلاء. مطبعة دار الحديث.
الزركلي، خ. (2002) الأعلام. دار العلم للملايين.
ابن المقفع، س. (2006). تاريخ مصر من خلال مخطوطة البطاركة، تحقيق: عبد العزيز جمال. مكتب مدبولي.
السيوطي، ج. (1997). حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. تحقيق: خليل منصور. دار الكتب العلمية.
الصفدي، ص. (2000). الوافي بالوفيات. تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. دار إحياء التراث.
ضيف، ش. (2004). الفكاهة في مصر. دار المعارف.
ضيف، ش. (د.ت). تاريخ الأدب العربي. عصر الدول والإمارات مصر. دار المعارف.
عبد الرازق، م. (1935). ديوان البهاء زهير. لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر.
العكبري، ع. (1406). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط. دار ابن كثير.
القزويني، ز. (1960). آثار البلاد وأخبار العباد. دار صادر.
كاتب جلبي، م. (2010). سلم الوصول إلى طبقات الفحول. تحقيق: محمود أرناؤوط. مكتبة أريسكا.
المقريزي، أ. (1934). السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة. مطبعة دار الكتب المصرية.
النويري، ش. (2005). نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز. دار الكتب العلمية.
اليونيني، ق. (1954). ذيل مرآة الزمان. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الهند.
Alrashed, Eyass, Çavuş, Muhammed Murtaza, .*(2021)* الإماء الشواعر لأبي الفرج الأصبهاني، قراءة نقدية.,*Mizanü'l-Hak: İslami İlimler Dergisi 13*.